القرآن والراسخون في العلم

دكتور : أحمد راسم النفيس
كلية الطب – جامعة المنصورة – مصر

أصبح الآن رفع المصاحف في التظـاهرات الاحتجاجيـة المنـددة بالاساءة للاسلام أو تلك الداعية الى تحكيم شرع الله تقليداً راسخاً. انه التقليد الذي ابتكره عمرو بن العاص في حملته الهادفة الى تقويض معسكر الشرعية الاسلامية بقيادة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام.

ليس كل من رفع أو يرفع المصاحف يفعل هذا غشاً وخداعاً فالأصل هو افتراض حسن النوايا، إلا ان الامر يحتاج الى دراسة وتأمل في علاقـة المسلمين بالقرآن ومدى فهمهم لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه فضلاً عن التزامهم بأحكامه وإقتدائهم بهديه وهـل يعـد رفـع المصاحف دليلاً قاطعاً على رغبة من يحملونها ومن باب أولى قدرتهم علـى

فهم ما فيها من قيم ومضامين وأحكام أم ان الامر يمكن إعتباره نوعاً من التبسيط المخل !!

المسلمون الآن (والحمد لله !!) لا يعانون من فقر في تلاوة القرآن وها هي مساجدهم وفضائياتهم عامرة (بأفضل القراء) من أصحاب الأصوات الرخيمة الذين يبكون ويتباكون وتخنقهم العبرات فتنطلق الزفرات والأنات والآهات ورغم كل هذا فما زال واقعهم البائس والمتخلف يراوح مكانه ولا زال البون بينهم وبين (التي هي أقوم) شاسعاً بما يقطع بأنهم لا يهتدون بهذا القرآن !!

قراءة وقراءة !!

رغم ان شهادة الواقع هي الأبلغ والأقوى على إفتقاد المسلمين لقراءة القرآن قراءة في العمق (قراءة من احكموه) بدلاً من تلك القراءة الشكلية إلا أن هذا لا يغني عن استحضار الدليل من كلام سيد المرسلين ومن كلام الامام علي بن ابي طالب عليه السلام.

أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال بينما نحن عند رسول الله (ص) وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة التميمي قال يا رسول الله أعدل فقال رسول الله ويلك ومن يعدل إن لم أكن أعدل فقال عمر ائذن لي فلأضرب عنقه فقال رسول الله (ص) دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته الى صلاته وصيامه الى صيامه يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم الى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى قذذه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة يخرجون على خير فرقة من الناس قال ابو سعيد فاشهد اني سمعت الحديث

من رسول الله وأشهد أن علي بن ابي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك فالتمس فأتى به حتى نظرت اليه على نعت النبي (ص) الذي نعته.

في مقابل أولئك الذين قرأوا القرآن قراءة لا تجاوز تراقيهم ولا تؤثر في أرواحهم ولا عقولهم يقف أولئك الذين قرأوا القرآن فأحكموه أي فهموا ما فيه من مبادئ أخلاقية حاكمة وعقلوه وهم مَنْ بكى الامام بن ابي طالب عليه السلام حزناً لفقدهم عندما استشهدوا بين يديه وقال عنهم :

" أين القَومُ الّذينَ دُعوا الى الاسلام فَقَبلوهُ وقرأوا القرآنَ فاحكَمُوهُ ؟ وهيجوا الى الجهادِ فَولَّهوا اللِّقاحَ أولادَها وسَلَبوا السيوفَ أغمادَها واخذُوا بأطرافِ الارضِ زحفاً وَصَفاً صفاً ؟ بعضٌ هَلَكَ، وبعضٌ نَجا ... لا يُبَشرونَ بالاحياءِ وَلا يُعَزّونَ عَن الموتى ، مُرهُ العيونِ مِنَ البُكاءِ، خُمصُ البُطونِ من الصيامِ ، ذُبُلُ الشفاهِ من الدُّعاءِ صُفرُ الالوانِ من السهرِ ، على وجوهِهم غَبَرةُ الخاشعين، اولئك إخواني الذاهبون، فَحَقَّ لنا ان نظمأ إليهم ونَعضَّ الايدي على فِراقِهم ".

(خطبة ١٢٠ نهج البلاغة)

مدرستان وطريقتان يقرأ فيهما وبهما القرآن :

الاولى: شكل بلا مضمون.

والثانية: قراءة الشكل والمضمون.

المدرسة الاولى :

ترى فيها تلك الوجوه المتوردة والجيوب الممتلئة من التكسب بكتاب الله والارتزاق بقراءة النص الالهي بالألحان ولا بأس بشيء من الدموع والعبرات !!

والمدرسة الثانية :

من قرأوا القرآن فأحكموه وعرفوا حقيقة الدنيا وحقيقة ما يريده الباري عز وجل منهم فصاروا (خُمْصُ البُطونِ من الصيام ، ذُبْلُ الشفاهِ منَ الدُعاء صُفْرُ الالوانِ من السهر ، على وجُوههم غَبَرَةُ الخاشعين).

المدرسة الاولى، خرَّجت لنا من حملوا سيوفهم على عواتقهم يحركونها في هوى ألسنتهم أو دفاعاً عن أسيادهم المستكبرين يضربون بها لا يفرقون بين البر والفاجر وبين ولي الله وعدو الله كما أنتجت لنا وعاظ السلاطين الذين أتقنوا فن الافتاء لصالح إدامة الظلم والطغيان وهي التي أنتجت لنا تلك الحالة العشوائية التي يتقلب فيها المسلمون الآن وقبل الآن والى أن يعود اليهم عوازب أحلامهم.

الأزمة التي عاشها المسلمون وما زالوا يعيشون فيها ناجمة بكل تأكيد عن قراءة البعض لكتاب الله بالألحان والأهواء ولا نعني بالالحان قراءة القرآن بصوت حسن تظهر فيه روعة المعاني وبلاغة النص بل قراءته بلحن القول (ولو نشاء لَأريناكَهُمْ فَلعرفتَهُم بسيماهُم ولَتَعرفنَّهم في لحنِ القولِ واللهُ يعلمُ أعمالَكُمْ) . (محمد / ٣٠)

قراءة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه (فَبِما نَقْضهم مّيثاقَهُمْ لَعنَّاهُم وجعلنا قُلُوبهم قاسيةً يُحَرِّفونَ الكلمَ عن مواضعه ونَسوا حظاً مما ذُكِّروا بِه ولا تَزالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ الله يحبُ المُحسنين). (المائدة/ ١٣)

﴿ يا أيُّها الرسولُ لا يحزُنكَ الذين يُسارِعونَ في الكُفرِ من الذين قالوا آمَنّا بأفواههم ولم تُؤمن قُلُوبهم ومنَ الذين هادُوا سَمّاعونَ للكَذِبِ سَمّاعونَ لقومٍ آخرين لم يأتوكَ يحرِّفون الكَلِم من بعدِ مواضعه يقولونَ

إنْ أوتيتم هذا فَخُذوه وإن لم تؤتوهُ فاحذروا ومن يُرد الله فتنتهُ فلن تملكَ له من الله شيئاً اولئكَ الذينَ لم يُرِد الله أن يُطَهِّرَ قلوبهم لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾. (المائدة/ ٤١)

إنها قراءة صوتية لسانية تتغافل عمداً عن تلك المفاهيم الجامعة والمبادئ القرآنية الثابتة (أم الكتاب) التي تُشكل ركيزةً لفهم الدين باعتباره أدلة لتغيير واقع الناس نحو الأفضل (التي هي أقوم) من خلال تحقيق العدل ورفض الظلم والوقوف في وجه كل أنواع الفراعنة والظلمة والمستكبرين، بإسم الله لا بإسم الصراع الطبقي ولا بإسم الديموقراطية أو الليبرالية وغيرها من القيم الانسانية المحدثة اتفقنا معها أم لم نتفق !!

إنها القراءة المزيفة التي حولت القرآن من كتاب يرفع راية العدالة ورفض الانصياع والركون الى الظَلَمَة والقبول بالظلم ويحمل بشارة للمستضعفين بالخلاص من المستكبرين الى صك ممنوح لهؤلاء المستكبرين لافتراس المستضعفين، ما أقاموا الصلاة وفي رواية ما بقوا على ظاهر الاسلام (إلا أن تروا كفراً بواحاً ليس لكم من الله فيه سلطان) !!

صراع المدرستين ..

الصراع داخل الاسلام كان ولا زال يدور بين مدرستين (مدرسة الذين قرأوا القرآن فاحكموه) و (مدرسة قراءة القرآن بالالحان – إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله –) .

الذين قرأوا القرآن فأحكموه (يعطفون الهوى على الهدى ويعطفون الرأي على القرآن) بينما يصر قادة الفتنة على (أن يعطفوا الهدى على الهوى والقرآن على الرأي) أو كما قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب في وصف المهدي المنتظر (عج) : (يعطفُ الهوى على الهدى إذا عَطَفوا

الهدى على الهوى، ويعطفُ الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي) .

إنه وصف دقيق لواقع الحال ونهاية المآل لهذا الجدل الدائر بين فريقين : (فريقاً هَدى وفريقاً حقَّ عليهمُ الضلالةُ انهم اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون الله ويحسبونَ انهم مُهتدون). (الاعراف/ ٣٠)

الجدل الدائر ليس بالضرورة جدالاً مذهبياً أو فقهياً بين فريقين يفهم كل منهما النصَّ بطريقة ما وفقاً لقواعد وضعها العلماء والمفسرون بل هو بين من يريد إخضاع وتأويل النص القرآني وفقاً لهواه ورغبته العارمة في الامساك بمفاتيح السلطة والثروة وفريق آخر ينطلق من فهم محكم لكتاب الله يبدأ من اُمهات المفاهيم القرآنية التي تدعو لاقامة العدل ونبذ الظلم أي أن القرآن هو نقطة البدء والانطلاق على عكس الفريق الآخر الذي يجعل النص في خدمة الهوى السياسي سواء كان هذا النص قرآنياً أو نبوياً وفي هذه الحالة يتسع المجال لوضع وتلفيق الروايات ونسبتها الى رسول الله (ص) والمهم أن يتحقق الهدف والمراد ألا وهو أكل الدنيا بالدين.

الآية السابعة من آل عمران ..

من هنا تأتي أهمية تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران وهي الآية التي فضحت الدجل الذي يمارسه أصحاب الأهواء والرغبات الدنيوية وكشفت أفعالهم وتحايلهم على عباد الله باسم الله والله ورسوله منهم ومن أفعالهم براء الى يوم الدين.

يقول تعالى :

﴿ هوَ الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وأُخر مُتشابهاتٌ فأما الذينَ في قُلوبهمْ زَيغٌ فيتبعُونَ ما تَشابه منهُ إبتغاءَ

الفتنة وإبتغاء تأويله وما يَعلمُ تأويلهُ إلاّ الله والراسخون في العلم يقولونَ آمنّا به كلٌّ من عند ربنا وما يَذَّكَّرُ إلا اولوا الالباب * ربَّنا لا تُزغْ قُلوبَنا بعدَ إذ هَديتنا وَهَبْ لنا من لَّدنكَ رحمةً إنكَ انت الوهَّابُ ﴾.

(٧ – ٨ آل عمران)

من وجهة نظرنا، فإن مشكلة المسلمين لم تكن خلافهم حول المتشابه واتفاقهم حول المحكم بل في التفافهم حول المحكم وقراءة المتشابه بالأهواء والألحان وصولاً لإقصاء المحكم أو المبادئ الدينية الحاكمة التي تفرز بالضرورة مواقف أخلاقية وسياسية حازمة في انحيازها للعدل ضد الظلم، وللاستقامة ضد الانحراف والطغيان وكانت النتيجة هي تلك النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحاكمة باسم الاسلام رغم انها (لا تتعلق من الاسلام إلا باسمه، ولا تعرف من الايمان إلا رسمه) والتي لبست (الاسلام لبس الفرو مقلوباً).

الوسيلة التي استخدمها (الذين في قلوبهم زيغ) والذين (يتبعونَ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) من أجل إنجاز هذا الهدف تمثلت في إقصاء وتهميش (الراسخين في العلم) سواء اولئك الذين قرأوا القرآن فأحكموه وتمسكوا بأمهات المبادىء القرآنية (أم الكتاب) وضحوا واستشهدوا من أجل إيمانهم أو أولئك الذين كانوا على قمة جبل الرسوخ في العلم من آل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيراً.

إنها ببساطة سياسة الإضلال خطوة خطوة:أهواءٌ تُتَّبعُ، وأحكامٌ تبتدعُ، يخالفُ فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجالٌ رجالاً، على غير دين الله لتصبح هذه الأهواء التي اتبعت والأحكام التي ابتدعت مجاملة لهذا وأرضاء لذاك دين الله وثوابت الأمة التي لا يجرؤ أحد على المساس بها أو الاقتراب منها وإلا

علا الصراخ والضجيج والعجيج على الاسلام الذي حرف والدين الذي حورب والى الله المشتكى (مِنْ معشر يعيشونَ جُهَّالاً ويموتون ضُلاَّلاً ليس فيهم سلعةٌ أبورُ من الكتاب اذا تلي حقّ تلاوته ولا سلعةٌ أنفقُ بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب اذا حُرِّف عن مواضعه ولا عندهُم انكرُ من المعروف ولا اعرفُ من المنكر). (خطبة ١٧ نهج البلاغة)

ومن ثم فقد أمكن لهؤلاء تقديم إسلام بديل، شكل بلامضمون وطقوس صوتية لا روح فيها ولا معنى لها ليبقى الحال على ما هو عليه ولا بشارة للمستضعفين بعد أن (أنعم) الله على المستكبرين فصاروا ملوكاً لدولة الاسلام بعد أن كانوا ملوكاً لدولة الكفر.

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره :

" المحكمات هنَّ اللواتي قد أحكمنَ بالبيانِ والتفصيل وأثبتتْ حُجَجهنَّ وأدلّتهنَّ على ما جُعلنَ أدلة عليه من حلال وحرام ووعد ووعيد وثواب وعقاب وأمر وزجر وخبر ومَثَل وعظة وعبر وما أشبه ذلك ثم وَصَف جلَّ ثناؤهُ هؤلاء الآيات المُحكمات بأنهنَّ أم الكتاب يعني بذلك أنَّهنَّ أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخَلْقِ اليه الحاجة من أمر دينهم، وما كُلِّفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم. وإنما سَمَّاهنَّ أم الكتاب لأنهنَّ معظم الكتاب، وموضع مفزَع أهله عند الحاجة اليه ".

وينقل عن ابن عباس في قوله: { منه آيات محكمات } قال: هي ثلاث آيات والتي في بني اسرائيل { وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياهُ } ١٧ – ٣٢ الى أخر الآيات .

ورغم أننا لا نقر بقصر المحكم على آيات سورة الانعام أو آيات سورة الاسراء إلا أن تأمل ما ورد فيها من أحكام يرى فيها أمهات المبادئ القرآنية الحاكمة للسلوك الانساني الفردي والجماعي وهو ما يدفع للتساؤل عن

الطريقة التي همشت بها هذه المبادئ لصالح النهج السلطوي التلفيقي وكيف جرى استباحة أغلب هذه القيم والمبادئ بإسم الدين ذاته وكأن الاسلام لا يحرم هذه الانتهاكات إلاّ على الافراد أما اذا حدثت نفس هذه الجرائم من الحكام وصارت هي القانون والنظام فهي من المباحات باسم المصلحة والحفاظ على النظام العام درءاً للفتنة بالفتنة (ألا في الفتنة سقطوا وأن جهنم لمحيطة بالكافرين).

يقول تعالى :

﴿ قُلْ تعالوا أتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكُم من إملاقٍ نحنُ نُرزقكُم وإياهم ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطن ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله إلا بالحقِّ ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلُون * ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هي احسنُ حتّى يبلُغَ أشدّهُ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لا نكلِّفُ نفساً إلاّ وُسعَها وإذا قُلتُم فاعدلوا ولو كانَ ذا قُربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكمْ تَذَكَّرون * وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوهُ ولا تتبعوا السبُلَ فتفرَّقَ بكُم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾.

(الانعام ١٥١ – ١٥٣)

إنها قيم العدل ورعاية الضعيف واليتيم وحماية كيان الاسرة ومحاربة الفقر ومنع الظلم والاعتداء وحرمة النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن خلال المحاكمة المنصفة العادلة أي أن الحاكم هو من يحتاج الى اقامة الدليل على صحة حكمه بينما يقول أحد رموز الفتنة وهو القاضي ابن العربي في مرافعته عن معاوية بن أبي سفيان في كتاب (العواصم من القواصم) ما نصه :

(قد علمنا قتل حجر بن عدي كلنا فيعضنا يقول قتله ظلماً وقائل يقول قتله حقاً فان قيل الاصل قتله ظلماً إلا اذا ثبت عليه ما يوجب قتله قلنا الاصل ان قتل الامام بالحق فمن ادعى أنه بالظلم فعليه الدليل ؟ ولو كان ظلماً محضاً لما بقي بيت الا ولعن فيه معاوية وهذه مدينة السلام مكتوب على أبواب مساجدها (خير الناس بعد رسول الله (ص) ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم معاوية حال المؤمنين) (العواصم) ص ٢١٩.

فالأصل (أي الشرع والدين) عند هؤلاء ان (قتل الامام " معاوية " لمن قتل هو الحق ومن ادعى انه الظلم فعليه الدليل) وبالتالي فقد صارت أفعال من يسميه هؤلاء الناس بالامام هي المحكم والآيات القرآنية الحاكمة متشابهة والامر واضح لا يحتاج الى شرح ولا دليل !!

أما اذا كان لابد من دليل على عدالة الطاغية فهذه أبواب بغداد مكتوب عليها (معاوية خال المؤمنين) وهل يحتاج المرء بعد هذا الى أي دليل ؟ ألم يقرأ القوم سورة القصص ليدركوا أن الله تبارك وتعالى أرسل نبيه موسى عليه السلام لاقتلاع فرعون وهامان وجنودهما من الأرض ووضع هدفاً لهذه البعثة المباركة وهو إعادة الحق للذين استضعفوا في الأرض ويرى كل طاغية متفرعن ومستبد ثمرة ظلمه في الدنيا قبل الآخرة.

(طسم * تلكَ آياتُ الكتابِ المُبين * نَتلوا عليكَ من نبأ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنون * إنَّ فرعونَ علا في الارضِ وجعلَ أهلَها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذّبحُ أبناءهمْ ويستحيي نساءهُم إنَّه كان من المُفسدين * ونُريدُ أن نَّمُنّ على الذينَ استضعفوا في الارض ونَجعلَهُمْ أئمةً ونجعلهمْ الوارثين * ونُمكن لهمْ في الارض ونُري فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذَرون).

(القصص/١-٦)

أليست هذه الآيات من المحكمات الواضحات وهل تحتاج معرفة فرعون والفراعنة وهامان وجنودهما الى فتوى من أي شيخ أو ممن سماه أشباه الناس عالماً وليس به وهو في حقيقة الامر لا يعدو كونه خادماً خدام فرعون وشاهد زور (فويلٌ لِّلَّذين يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمَّ يقولونَ هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فَويلٌ لهُم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون) . (البقرة/ ٧٩)

ألا يعد ذلك الشيخ الذي أفتى بأن من حق (الامام معاوية) أن يقتل وأن من لا يعجبه هذا القتل أن يأتي بالدليل على انه قتل بغير حق واحداً من أولئك الذين يتبعون ما تشابه منه إدامة للفتنة وادامة للظلم وهل هناك فتنة أبشع من هذا ؟؟

الراسخون في العلم ..

يقول الراغب الاصفهاني في مفردات القرآن: رسوخ الشيء ثباته ثباتاً متمكناً والراسخ في العلم المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى (الذين آمنوا بالله ثم لم يرتابوا) وكذا قوله تعالى (لكن الراسخون في العلم) انتهى النقل ..

الراسخون في العلم درجات بعضها فوق بعض، في القمة منهم أهل الذكر الذين عناهم الله تبارك وتعالى بقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (الانبياء/ ٧)

وقد روى كل من الطبري والقرطبي في تفسير هذه الآية، حدثني أحمد بن محمد الطوسي قال: ثني عبد الرحمن بن صالح، قال: ثني موسى بن عثمان عن جابر الجُعْفي، قال : لمّا نزلت: { فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون } قال علي عليه السلام: نحنُ أهل الذكر .

والمعنى أن أهل البيت عليهم السلام هم في القمة العالية من أهل الذكر وهم يفيضون من علمهم ومعرفتهم على كل من نهج نهجهم وسار على دربهم علماً راسخاً وقولاً ثابتاً يثبت الله به الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد. إنه المعنى الذي ذكره أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام عندما قال :

" أين الذينَ زعموا أنّهم الراسخون في العلم دونَنا ، كذباً وبغياً علينا ، أنْ رَفَعَنا الله ووضعهم، وأعطانا وحَرَمهم، وأدْخَلَنا وأخرجهم ".

(خطبة ١٤٤ نهج البلاغة)

ولما كان أهم خصائص العلم هو انتقاله من العالم الى المتعلم ومن الاستاذ الى التلميذ فالراسخون في العلم يعلمون تلاميذهم علماً راسخاً لا تعتريه شبهة ومن هنا تتعلم الأمة كلها علماً راسخاً ثابتاً وتواصل سيرها على بصيرة ويصبح التلاميذ هم أيضاً راسخون في العلم هذه المرة من خلال اعتمادهم منهجاً يقينياً وأخذهم العلم والموقف من نبع العلم الصافي الذي لا يعتريه كدر ولا يشوبه شوب.

ولذا نرى الامام علي ينصح الامة محذراً من دعاة الفتنة المعتمدين على آرائهم وأهوائهم فيقول :

(أيها النّاسُ استصبحوا منْ شُعلة مصباح واعظ متّعظ ، وامتاحُوا من صفو عينٍ قد روّقت من الكدر. عبادَ الله لا تركنوا الى جَهالَتكم ، ولا تنقادوا لأهوائكم ، فإنّ النازلَ بهذا المنزل نازلٌ بشفا جُرُف هارٍ ، ينقلُ الرّدى على ظهره من موضعٍ الى موضع لرأي يُحدثه بعدَ رأي، يُريدُ أنْ يُلصقَ ما لا يلتصقُ ويُقربُ ما لا يتقاربُ). (خطبة ١٠٥ نهج البلاغة)

أحد أصحاب العلم الراسخ المأخوذ عن أهل الذكر الأكثر رسوخاً هو عمار بن ياسر رضوان الله عليه الذي وقف كالطود الشامخ مع الامام علي عليه السلام في كل مواقفه حتى لقي ربه شهيداً ويكفيه شهادة رسول الله في

حقه (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) حيث يروي ابن ابي الحديد في شرح النهج ٥/ ٢٥٦ :

عن أسماء بن حكيم الفزاري قال: كنا بصفين مع علي تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء احمر، إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى الينا فقال أيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا، فقال: ابو اليقظان؟ قال: نعم، قال: أن لي اليك حاجة أفأنطق بها سراً أو علانية ؟ قال: اختر لنفسك أيهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: اني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه، لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً،حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي منادياً تقدم فأذن وشهد أن لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ونادى بالصلاة، ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم اقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوة واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبت بليلة لا يعلمها الا الله، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فألقه، فانظر ما يقول لك عمار فاتبعه، فجئتك لذلك. فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي، فانها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع الرسول (ص) ثلاث مرات وهذه الرابعة فما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن، اشهدت بدراً وأُحُداً ويوم حنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال : لا ، قال :

فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله (ص) ، يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين وان مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الاحزاب فهل ترى هذا العسكر ومن فيه ؟ والله لوددت ان جميع من فيه ممن اقبل مع معاوية يريد قتالنا ، مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً، فقطعته قطعته، والله لدماؤهم جميعاً أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟

قال : لا بل حلال ، قال : فانهم حلال كذلك ، أتراني بينت لك ؟ قال : قد بينت لي ، قال : فاختر أي ذلك احببت.

فانصرف الرجل فدعاه عمار ثم قال : أما إنهم سيضربونكم بأسيافكم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا : لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا ، والله ما هم من الحق ما يقذى عين ذبابة ، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجر ، لعلمنا انا على حق وانهم على باطل.

والمعنى ان الامام علي وهو الاكثر رسوخاً في العلم أحال السائل على عمار بن ياسر صاحب العلم الراسخ واليقين الاكثر رسوخاً في صحة موقفه أياً كانت النتائج التي ستنتهي بها جولة الصراع الدائرة والتي لا يمكن لها أن تغير من حقيقة الاشياء.

لقد كان عمار بن ياسر واحداً ممن عناهم الرسول **صلى الله عليه وآله** في الحديث الذي رواه ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين :

حدثنا موسى بن سهل الرملي ، قال : ثنا محمد بن عبدالله ، قال: ثنا فياض بن محمد الرقي، قال: ثنا عبدالله بن يزيد بن آدم، عن ابي الدرداء وأبي امامة قالا سُئل رسول الله **صلى الله عليه وسلم** من الراسخ في العلم ؟ قال:

مَن برّت يمينه وصدقَ لسانه واستقام له قلبه وعفّ بطنه فذلك الراسخ في العلم ".

وحدهم الذين لم تمتلئ بطونهم من لعق الحرام هم القادرون على التمييز بين الحق والباطل بعد أن عجز الشيطان الرجيم عن إستدراجهم واغوائهم رغم أنه أضّل من بني آدم جبلاً كثيراً ممن لا يعقلون ولا يتدبرون !!

مفهوم الفتنة ..

أحد التهويمات التي استخدمها وما زال يستخدمها القوم في تبرير جرائمهم وشرعيتها بإسم الدين هو الخوف من وقوع الفتنة والادعاء بأن الضرر الواقع من الانحراف بالاسلام نحو الفرعونية أقل بكثير من ذلك الضرر الناجم عن استمرار القتال والفوضى علماً بأن مسببي الفوضى والقتل والاضطراب هم أنفسهم قادة الضلال والفتنة !!

ولك أن تلاحظ أن مفهوم الفتنة (التي وقى الله شرها) أو (الفتنة التي طهر الله منها سيوفنا وعلينا أن نطهر ألسنتنا منها) تعني عند القوم التباس المفاهيم واختلاط الحق بالباطل حتى لقد قسم بعضهم أبطال [الفتنة] الى قسمين : مجتهد مصيب وله أجران ومجتهد مخطئ وله أجر واحد !!

تسرب هذا المفهوم الى كتب الفقه السياسي والاعتقادي حتى لقد أصبح الدستور السياسي لخير أمة أخرجت للناس هو (سلطان غشوم خير من فتنة تدوم) .

يقول الراغب الاصفهاني في معنى كلمة فتنة :

أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته واستعمل في إدخال الانسان النار (يوم هم على النار يفتنون) (ذوقوا فتنتكم) أي عذابكم، وتارة يسمو ما يحصل عنه العذاب نحو قوله (ألا في الفتنة سقطوا) وتارة في الاختبار نحو (وفتناك فتونا) وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع اليه الانسان من شدة أو رخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر إستعمالاً وقد قال فيهما (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال في الشدة :

(إنما نحن فتنة * والفتنة أشد من القتل * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) وقال (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا) أي يقول لا تبلني ولا تعذبني وهم بقولهم هذا وقعوا في البلية والعذاب، وقال (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم) أي يبتليهم

ويعذبهم وقال (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك * وإنْ كادوا ليفتنونك) أي يوقعونك في بلية وشدة في صوفهم إياك عما أوحي إليك وقوله (فتنتم أنفسكم) أي أوقعتموها في بلية وعذاب وقوله (وأعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فقد سماهم ههنا فتنة إعتباراً بما ينال الانسان من الاختبار بهم وسماهم عدوا في قوله (إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم) إعتباراً بما يتولد منهم، وقوله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم يفتنون) أي لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم، والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الافعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ومتى كان من الانسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك ولهذا يذم الانسان بأنواع الفتنة في كل مكان نحو قوله تعالى (والفتنة أشد من القتل * إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات * ما أنتم عليه بفاتنين) أي بمضلين.

الفتنة اذا هي الشدة والبلاء وهي الاختيار والتمييز وهي من الله تبارك وتعالى حكمة وتدبير الهي ليميز الخبيث من الطيب أما إن كانت من العباد فهي ظلم وعدوان واسراف.

من أين اذاً جاء القوم بمفهومهم المبتكر عن الفتنة (الفتنة العمياء) التي لا يعرف فيها وجه الصواب والخطأ تلك الفتنة التي أنفسهم أطرافها الى مصيب مجتهد له أجران ومجتهد مخطئ حصل مقابل جرائمه ومقابل قيامه بفتنة الناس عن دينهم وعن صراط الله المستقيم على أجر واحد رغم أن فتنة العباد للعباد هي ظلم وعدوان واسراف (والفتنة أشد من القتل) .

الفتنة بكل أنواعها هي اختبار وتمحيص وتمييز للخبيث من الطيب سواء كانت فتنة الشر أو فتنة الخير (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فهي اختبار للوعي بمبادئ الدين واختبار للإرادة الإنسانية ومدى قدرتها على

الصمود أمام الخوف من القتل أو الخوف على الرزق وأمام الإغراءات الدنيوية والرشاوى التي يعرضها قادة الفتنة والضلال سواء كانوا من الكفار أو من المنافقين المتمسحين بالدين والدين منهم براء.

الشبهة والمتشابهة ..

تضمنت الآية الكريمة ذماً لرموز الضلال الذين يتصيدون المتشابهة ويتقممون الأدلة من هنا وهناك سعياً منهم لايجاد تدين بديل عن التدين الرسالي الصحيح ومن هنا تعين علينا بيان معنى الشبهة والمتشابهة.

بعض المفسرين ربما رغبة منه في تنحية الراسخين في العلم عن التصدي لهداية الامة ومنعهم من القيام بواجبهم في تصحيح المفاهيم المعوجة قرر أن يجعل وقف القراءة بعد (وما يعلم تأويله إلا الله) لازماً والمعنى أن المتشابه لا يعلم تأويله الا الله ومهمة الراسخين في العلم تقف عند حد الاقرار والتسليم (آمنا به كل من عند ربنا) لينفسح الطريق على مصارعيه أمام دعاة الضلال والفتنة فالكل عندهم (في شرع الجهالة سواء).

الذين جعلوا الوقف لازماً لم يلزموا أنفسهم بضابط ولا رابط ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلاّ أفتوا فيها فأحلوا الحرام وحرموا الحلال رغم أن أغلبهم كانوا كما وصفهم أمير المؤمنين علي بن ابي طالب:

(إنَّ أبغضَ الخلائقِ الى الله رجلان رجلٌ وكلَه الله الى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل مشغوفٌ بكلام بدعةٍ ودعاء ضلالةٍ فهو فتنةٌ لمن افتتن به ضالٌ عن هدى مَنْ كان قبله مضلٌ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته حمّالٌ خطايا غيره رهن بخطيئته ورجلٌ قمشَ جهلاً موضعٌ في جهال الامة عارٌ في اغباش الفتنة عم بما في عقد الهدنة قدْ سمّاهُ أشباه الناس عالماً وليس به بكرَ فاستكثرَ منْ جمع ما قلّ منه خيرٌ مما كثُر حتى اذا ارتوى من ماءٍ آجن واكتنز من غير طائل جلَسَ بين الناسِ قاضياً ضامناً لتخليص ما إلتبسَ

على غيره فان نزلتْ به احدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه ثم قطعَ به فهو من لبس الشبهات في مثل نسجَ العنكبوتِ لا يدري أصابَ أمْ أخطأ فإن أصابَ خافَ أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصابَ جاهلٌ خباطُ جهالاتٍ عاشٍ ركّابُ عشواتٍ لمْ يعَضَّ على العلم بضرسٍ قاطع يُذري الرواياتِ إذراء الريح الهشيم لا مليء واله باصدار ما وَرَد عليه ولا هو اهلٌ لما فوّض اليه لا يحسب العلم في شيء مما انكرهُ ولا يرى أنّ من وراءِ ما بلَغَ منهُ مذهباً لغيره وإنْ أظلمَ عليه أمرٌ إكتتم به لما يعلم من جهل نفسه تصرخُ من جور قضائه الدّماءُ وتعجُّ منه المواريث الى الله اشكو من معشر يعيشونَ جُهالاً ويموتون ضلالاً ليس فيهم سلعة أبورُ من الكتاب اذا تُلي حقّ تلاوته ولا سلعةٌ أنفقُ بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب اذا حرفَ عن مواضعه ولا عندهم أنكرُ من المعروف ولا أعرف من المنكر) .

(خطبة ١٧ نهج البلاغة)

ورغم كل ذلك فالوقف يلزم أهل البيت (أهل الذكر) ولا يلزمهم !! يا للعجب !!

الراغب الأصفهاني ..

يقول الراغب الاصفهاني في معنى كلمة (شبه) : الشبهُ والشَبَهُ والشبيه حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية كاللون والطعم والعدالة والظلم. والشبهة هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى، قال (وأتوا به متشابهاً) أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا طعماً وحقيقة وقوله (تشابهت قلوبهم) أي في العمى والجهالة.

والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى فقال االفقهاء: المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده وحقيقة ذلك أن الآيات عند إعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على

الاطلاق ومتشابه على الاطلاق ومحكم من وجه ومتشابه من وجه، فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب :

متشابه من جهة اللفظ ومتشابه من جهة المعنى فقط ومتشابه من جهتيهما، والمتشابه من جهة اللفظ ضربان، أحدهما يرجع الى الألفاظ المفردة وذلك إما من ناحية غرابته نحو الابّ ويزفون وإما من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين والثاني يرجع الى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وضرب لبسط الكلام نحو (ليس كمثله شيء) لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع وضرب لنظم الكلام نحو (أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيماً) تقدير الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً وقوله (ولولا رجال مؤمنون) الى قوله (لو تزيلوا).

والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة فإن تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه.

والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعاً خمسة أضرب :

الاول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو (اقتلوا المشركين).

والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو (فانكحوا ما طاب لكم).

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو (اتقوا الله حق تقاته).

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو (وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها) وقوله إنما النسيىء زيادة في الكفر) فإن من لم يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية.

والخامس: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح.

وهذه الجملة اذا تصورت عُلم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم. إنتهى النقل عن الراغب الاصفهاني .

يقول الامام علي بن ابي طالب عليه السلام :

(وإنّما سُميتِ الشُبهةُ شُبهةً لأنها تُشبهُ الحقّ ، فأما أولياءُ اللهِ فضياؤُهُم فيها اليقينُ ، ودَليلهم سَمْتُ الهُدى ، واما أعداءُ اللهِ فدُعاؤهمْ الضلالُ، ودليلُهم العمى). (خطبة ٣٨ نهج البلاغة)

الشبهة اذاً هي اختلاط الامور على البعض عندما يعجزون لضعف فيهم عن ادراك وجه الصواب من الخطأ فيسقط البعض منهم في فخاخ الدجالين والكذابين والمزورين وما أكثر هؤلاء في تاريخ كل الأمم من الذين يخلطون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون وممن يموهون على الناس حقائق الدين أو حقائق الواقع أو ممن يريدون أن يأكلوا الدنيا برفع شعارات الدين فينقاد الناس وراءهم وكما يقول أمير المؤمنين علي بن ابي طالب في وصف هؤلاء وما يجرونه على أتباعهم بل وعلى العالم كله من بلاء :

(إنَّ الفتَن إذا أقبَلتْ شَبَّهت، واذا أدبرت نَبَّهتْ، يُنكرنَ مُقبلات، ويُعرفنَ مُدبرات، يَحْمُنَ حومَ الرياح، يُصبنَ بلداً ويُخطئنَ بلداً).

يأتي هؤلاء بفتنهم أي بضلالاتهم المؤدية لخسارة الدنيا والدين لينصبوا فخاخ الشعارات والوعود فينقاد لهم البسطاء ومحدودو العلم وضعاف العقول ولا يدرك هؤلاء أنهم قد سقطو في حفرة عميقة أو (في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) إلا بعد فوات الأوان وبعد أن لم يعد مكان سوى للحسرة والخذلان.

ولو أن هؤلاء قد عملوا بنصيحة الامام التي ذكرناها سابقاً واستصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ أو امتاحوا من صفو عين قد

رُوّقت من الكدر بدلاً من أن يركنوا الى جهالتهم، أو ينقادوا لأهوائهم لما أفلح أحد في إصطيادهم وسوقهم الى حتفهم والى مصيرهم الأسود الذي هو من دون أدنى شك نتيجة منطقية لاعراضهم عن سؤال أهل الذكر وعن اقتباس العلم من معدنه ممن لا يسألهم أجراً وهم مهتدون.

الفتنة التي تحدث عنها الامام علي عليه السلام هي نفسها الفتنة بمفهومها القرآني، ارتكاب الأخطاء التي تؤدي الى نزول البلاء الدنيوي أو الاخروي والتعرض لامتحانات ما كان أغنى الناس عن التعرض لها.

ليس هناك ما يمكن أن يسمى بفتنة إنعدام الرؤية لأن إنعدام الرؤية يعني شيئاً واحداً هو سقوط التكليف ويتعين على المكلف العاقل أن يختار الوقت الصحيح والصائب للرؤية قبل فوات الأوان فما يشتبه على الجاهل اليوم سيراه بأم عينيه غداً ولات حين مناص !!

إن لم تستجب لنصيحة الراسخين في العلم أو أولئك الذين انتقل اليهم العلم الراسخ فليس من حقك أن تقول لم أكن أعلم أو ما زلت غير قادر على معرفة الفارق بين الخطأ والصواب (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا).

ليس من حقك أن تخدع غيرك كما انه من العار أن تواصل خداع نفسك لأن الفتن والضلالات حتى وإن شبهت حين أقبلت فلابد أنها نبهت بعد أدبرت بعد أن حطمت ودمرت وأهلكت وأضاعت عليك الفرصة التي لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة !!

أما عن السبب الذي يدفع صناع الفتن والضلالات ممن سكن الزيغ في قلوبهم لسلوك طريق التاويل المنحرف والمعوج فيبينه لنا الأمام علي بقوله :

(إنما بدءُ وقوعُ الفتن أهواءٌ تُتَبعْ ، وأحكامٌ تبتدعُ ، يُخالفُ فيها كتابُ الله، ويتولى عليها رجالٌ رجالاً، على غير دين الله، فلو أنّ الباطلَ

خلَص من مزاج الحقِّ لم يخفَ على المرتادين، ولو انَّ الحقَّ خلَصَ من لبس الباطل انقطعتْ عنه ألسنُ المُعاندين، ولكن يؤخذُ منْ هذا ضغثٌ، ومن هذا ضغثٌ، فيمزجان! فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، ويَنجو الذين سبقتْ لهمْ من الله الحسنى).

(خطبة ٥٠ نهج البلاغة)

الراسخون في العلم من النوع الثاني أو من تلك الحلقة الوسيطة بين أهل القمة أهل الذكر وجمهور المؤمنين المتلقين (مثل عمار بن ياسر) يشكلون ضرورة حياة وبقاء لهذا الدين ولهذه الامة حتى ولو لم يبلغ علمهم ما بلغه علم أئمة الدين وهم قد عرفوا حدودهم وقدراتهم وهم من وصفهم الامام بقوله:

(واعلَمْ أنَّ الراسخينَ في العلمِ همْ الَّذين أغناهُم عن اقتحام السُّدَدِ المضروبةِ دونَ الغُيُوب الاقرارُ بجملةِ ما جَهلوا تفسيره من الغيبِ المحجوبِ فَمَدحَ الله إعترافهم بالعجزِ عن تناولِ ما لم يحيطوا به علماً وسَمّى تركَهُم التَّعمق فيما لم يكلِّفهم البحث عن كنهه رسوخاً فاقتصر على ذلك ولا تُقدّر عَظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكونَ من الهالكين).

(خطبة ٩١ نهج البلاغة)

خلاصة :

نعتقد ان قراءة القرآن قراءة متجددة هي فريضة العصر الراهن الذي يتعين على الأمة الاسلامية أن تنهض وتقوم بها بدلاً من الاكتفاء بما كتبه المفسرون الأوائل في ضوء المتغيرات الكونية التي تحيط بهم والتي تحتم عليهم التغيير والاصلاح.

قراءة القرآن في ضوء ثوابته ومبادئه الأصيلة والحاكمة (أم الكتاب) بعيداً عن تلك الترهات والسخافات التي فرضتها عصور التخلف والاستبداد والظلام.